

### عصر ابن الرومي أو القرن الثالث للهجرة

"كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة، كان عهد اليقين والإيمان وكان عهد الحيرة والشكوك، كان أوان النور وكان أوان الظلام، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط: بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا شيء قط، وسيلنا جميعاً إلى سماء عليين وسيلنا جميعاً إلى قرار الجحيم. تلك الأيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها، وإلا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات"

هذا هو عصر الثورة الفرنسية، وهكذا استهل وصفه الكاتب الإنجليزي "شارلس دكنز" في بداية قصة المدينتين، إلا أنك قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وانت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور في تواريخ الانتقال والإضطراب، ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة في دولة الإسلام الشرقية، وهو القرن الذي لا يوصف في جملة إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلي الذي كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات، وإن اجتمعت في نطاق واحد من الزمان

إن كان لكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث للهجرة كان أوان النماء للدولة العباسية جاء بعيد التمهيد وقبيل النضج والذبول. ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤسسو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد. وكانت الدولة في إبانه أشبه شيء بالمرج الأخضر الذي ينمو فيه الحب والفاكهة والشوك والعشب المسموم: خضرة زاهية ناضرة ولكنها وسيمة شائثة ومصالحة مهلكة ومرجوة مخشية، ومختلط فيها الغذاء

والسم اختلاطاً لا سييل فيه إلى التنقية والتمييز. فهو العصر الذى بلغ كل شىء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم. أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما تقدموا صالحاً أو طالحاً على السواء. فبدأ التمام وبدأ النقص فى حين واحد، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم إلى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والإنذار، فكان نسيجاً من ألوان الزمان لا تشيع منه عين الفنان ولا روية الحكيم

وليس بنا أن نسهب فى وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه وإنما يعيننا منه ما يحيط بفرد واحد هو الشاعر الذى نترحم لحياته. فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحي تلك الحياة، والقليل الوجيز من ذلك التاريخ كاف لتوضيح ما نريده فى هذا المقام

### حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومى فى سنة إحدى وعشرين ومائتين وتوفى فى سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة. فهو قد أدرك فى حياته ثمانية خلفاء هم: الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد الذى توفى بعد ابن الرومى ببضع سنوات. فإذا أردنا أن نحيط بالحالة التى كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الإلمام بالمصير الذى صار إليه بعض أولئك الخلفاء. فمنهم واحد قتل وهو المتوكل وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم: المستعين والمعتز والمهتدى، قيل أن من الآخرين من مات مسموماً. والبقية الذين ما توا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتقاض أو غارة خارجية، ولم يكن حظ ولاة العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير. فقل بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاة الأموال.

وكان الخلفاء عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور،

أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين .

إن اطراد البطش بالخلفاء والوزراء لا يدل على أمان أو انتظام فى سير الأمور، ولكن هذا كله لا يزال ضعيف الدلالة على ما كانت عليه حقيقة الحال فى حكومة تلك الأيام. قد يعوزنا أن نعلم كيف كان المقتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كيف كان الفساد يجرى فى خلائق النفوس كما كان الفساد يجرى فى سياسة الدولة وأعمال الدواوين . فقصارى ما يدل عليه اطراد العدوان أن شريعة الحكم لا ترعى وأن الحكام لا تتقى، إلا أن الحكومة قد تهزل هيبتها وتبطل شريعتها ثم تبقى للناس بعد ذلك حرمان أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون عليها: تبقى لهم حرمان المروءة وآداب العرف والدين . أما فى ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع فى بعض حوادث الفتك مبلغاً لا حرمة معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة .

فمن أمثلة ما كان يصيب الخلفاء ما حدث للمعتز حين طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالا: قال الطبرى فى أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين: " فلم يرعه إلا صياح القوم من أهل الكرخ والدور وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا المعروف بأبى نصر قد دخلوا فى السلاح فجلسوا على باب المنزل . . ثم بعثوا إليه أن اخرج إلينا فبعث إليهم أنى أخذت الدواء أمس وقد أجفلى اثنتى عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف، فإذا كان أمر لا بد منه فليدخل إلى بعضكم، فدخل إليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجروا برجله إلى باب الحجر . قال: وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرب بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وأثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس . . فجعلت أنظر إليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم

فيه . . ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده . . فذكر أنه لما خلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه، جصصوا سرداباً بالحص السخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتاً، وكانت وفاته لليلتين خلنا من شعبان في هذه السنة. فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لا أثر فيه" . . ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ما حدث لمحمد بن عبد الملك الزيات في أيام المتوكل وذكره الطبري في أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع: "لم يزل أياماً في حبسه مطلقاً ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئاً، وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير، فمكث أياماً ثم سوهر ومنع من النوم: يساهو وينخس بمسله. ثم ترك يوماً وليلة فنام وانتبه فاشتهدى فاكهة وعنباً فأتى به فأكل ثم أعيد إلى المساهرة ثم أتى بتنور من خشب فيه مسامير حديد. . وكان هو أول من عمل فعذب به ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أياماً. وذكر عن الدندانى عن الموكل بعذابه أنه قال: كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يده إلى السماء جميعاً حتى يدق موضع كتفيه ثم يدخل التنور فيجلس، والتنور فيه مسامير حديد وفي وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح، فيجلس على الخشبة ساعة ثم يجيء الموكل به فإذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائماً كما كان ثم شدوا عليه. قال المعذب لى: خائلته يوماً وأريته أنى أقفلت الباب ولم أقفله. انما أغلقتة بالقفل ثم مكثت قليلاً ثم دفعت الباب غفلة فإذا هو قاعد فى التنور على الخشبة، فقلت أراك تعمل هذا العمل؟ فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجله فما مكث بعد ذلك أياماً حتى مات، واختلف فى الذى قتل به فقيل بطح فضرب على بطنه خمسين مفرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون. فأصبح ميتاً قد

التوت عنقه ومتغت لحيته، وقيل مات بغير ضرب، وذكر عن مبارك المغربي أنه قال: ما أظنه أكل في طول حبسه إلا رغيقاً واحداً، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال: وكنت أسمع قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يا بن عبد الملك! لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة! ذق ما علمت بنفسك! فكان يكرر ذلك على نفسه، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله" والذي روى عن التمثيل بالمذنبين - ولاسيما في أيام المعتضد - أقطع من هذا وأعنف. وكأنما كان التفضيح بهم فرجة يتفننون في ابتداع أشكالها وأساليبها ليلهوا بها النظارة ويذكروها فيما يذكرون من مشاهد المجون والفكاهة!

أساس هذا الشر كله سيان غالبان هما القطيعة بين بنى العباس والعرب، ونظام الإقطاع الذي تمادى فيه بنو العباس حتى انتهى إلى تصدع العالم الإسلامي وتشعبه في مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة

فبنو العباس كانوا قومًا موتورين طال عليهم الظلم واحتمال المكاره وكانوا ينقمون على العرب أنهم خذلوا آل النبي في نضالهم مع بنى أمية وباعوهم بيع السماح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والوعود. فلبثوا زمانًا يسامون الذل ويلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبى نسائهم وهم آل النبي الذي لم يسأل قومه على الهداية أجرًا إلا المودة فيهم، وابتلوا بكل محنة في دولة الأمويين ولا من يغضب لهم أو يجنح إليهم. ولقد كان بنو العباس شركاء بنى على في الوتر وإن كان المصائب في معظمه مصاب هؤلاء. لأنهم كانوا جميعًا من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال مل متم إليه. ثم لما قامت لهم آخر الأمور دولة لم تقم على أيدي العرب وهم أولى الناس أن ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم، وإنما قامت على أيدي الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية، فامتألت نفوسهم حفيظة على العرب

وانقطع ما بينهم وبينهم من صلة المودة والطمأنينة وشعروا لهم فى نفوسهم بما يشعر به المظلوم لمن ظلموه أو أعانوا عليه ظالميه، والموتور إذا خاب ظنه فى إنصاف الناس وساء رأيه فى أمانتهم وإخلاص طويتهم لم يعرف لهم حقاً ولم يرع لهم ذمة ولم يجبر الأمر بينه وبينهم إلا على المنفعة والرهبة دن الثقة والمودة، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التى اشتهر بها أساطين بنى العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم، وجاء اتصالهم بأجلاف الأعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضرورياً من المثالات التى تعودها هؤلاء الأعاجم فى وحشية البداوة

قيل أن العباسيين إنما قربوا إليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعدوان والقواد مكافأة لهم على نصرهم إياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم . . . والحقيقة أن بنى العباس كانوا يتوجسون من العرب قبل أن تقوم لهم دولة وتنظم لهم عقدة، وكان إبراهيم بن محمد على صاحب الدعوة قبل السفاح يكتب إلى أبى مسلم: "إن استطعت إلا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل، فأبىما غلام خمسة أشبار تتهمه فاقتله" فهو الحذر من العرب الذى أبعد هؤلاء واخملهم فى دولة بنى العباس، وليست مكافأة الفرس ومن إليهم، ثم توالى الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه فارسية، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن فى إقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم، ثم جاء المعتصم - وكانت أمة تركية - فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس فى جيش الدولة وولاة أمرها فضلاً عن اختلاف الأجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء، وتفاقت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء، وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها فشغب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعاً لو يملكهم خليفة

قوى يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير: "نجىء بمن نهايه ونفرقه فتبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضنا فقتلنا أنفسنا" ثم اشتد إشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافة ولا يتولاها أحد منهم، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسمها مثل هذا التدبير العاجل الى لا يطول الاستقرار عليه

كان أمر الدولة إذن قائماً على سوء الظن والدسياسة، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا إخلاص الفرس لبني العباس حتى خيل إلى بعض قراء التاريخ أن بني العباس كانوا خليقين أن يطمئنوا إلى جهة واحدة من شعوبها الكثيرة، وما كان الأمر كذلك إلا فى الظاهر الذى لا يخدع به رجال من المحنكين المتحذرين كرجال الدولة العباسية، فما نظن أبا مسلم نصير الدولة الأكبر إلا كان طامعاً فى الخلافة متربصاً بأوليائه الدائرة، ولهذا طمح إلى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه إلى العباس وبدأ باسمه فى مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس فى موسم الحج واستعد للملك استعداداً الذى لا يخفى على أوليائه، وما نظن البرامكة إلا كانوا يفعلون فعل أبى مسلم فى شىء من التبصر وطول الأناة..

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تعوز العظماء فى أمة الفرس أسباب الدعوة والانتفاض؟ فإن كان الأمر أمر الطمع والقوة فهام الفرس أصحاب القوة التى وصل بها العباسيون إلى الخلافة، وإن كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فهام أبناء على عندهم يدعون لهم إذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعاً ومجيباً بعد ما أصاب العلويين على أيدي بني العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب فى دولتهم من إهمال وإطراح.

كان حكم بني العباس حكم الموتور المستريب ولا يكون إلا هكذا الموتور المستريب. وأطبق نظام الإقطاع على هذه الآفة فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع لثقة بين إنسان وإنسان من العاملين فى الحكومة.

## نظام الإقطاع

فنظام الإقطاع نظام معيب ولكنه يبقى مستور العيوب ما بقيت هيبة الدولة وسطوة القائمين عليها. فإذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر في أركان الملك فلا يدعه إلا وهو مفكك الأجزاء معثور بأسباب الفناء.

فكان الولاة - والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة في عنفوانها - يؤدون المال الذي عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالإصلاح لتعزز عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة، فلما تقلقت الخلافة وارتاب الولاة في أمرها أهملوا الإصلاح وتهافتوا على جميع الأموال وحبسوا أرزاق العمال وأغلقوا مرافق الرعية، فخرجت الأرض وعم السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسيسة، ولجأ الخلفاء إلى اغتيال الولاة والكتاب وكل من بأيديهم مال الجباية. فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبئات، وأصبحت الكتابة والوزارة وما إليهما من وظائف الدولة كأنما هي رخصة بالظلم والغضب ريشما يحتاج الخلفاء إلى ما جمعه الوزراء والكتاب فيحصلوا على المال من هذه الطريق! وبلغ من شيوع الاختلاس أن الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال وأصحاب الوظائف في أرزاقهم فكانوا لا يؤدون رزق عامل أو صاحب وظيفة إلا إذا اقتطعوا منه أتاوة لأنفسهم واستكتبوه توقيعه باستيفاء رزقه، غير مستثنين من ذلك أحداً حتى أخوة الخليفة وأهل بيته. بل قد بلغ من شيوع الاختلاس إن أصبح سراً مذاعاً لا يكتفى في حضرة الخليفة نفسه ولا يبالى الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله: فلما عرض الخليفة المهتدى لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال "معجلاً ومؤجلاً" قال له سليمان: "يا أمير المؤمنين! هذا قول لا يخلو من أن يكون حقاً أو باطلاً، فإن كان باطلاً فليس مثلك من يقوله، وإن كان حقاً وقد علمت أن الأصول

محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل إليهم من غير  
تحيف للرعية ولا نقص للأموال؟"

وراجت تجارة الارتشاء من العمال وعمال العمال حتى بلغت أقصى ما  
عساها أن تبلغه في أواخر أيام الدولة، فقليل بلغت أقصى ما عساها أن تبلغه  
في أواخر أيام الدولة، فقليل عن الخاقاني فيما رواه الفخرى أنه ولي في يوم  
واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة وقبض من كل واحد منهم رشوة! فإن  
كان قد بقي لحسن الظن بين ولاة الأمر بقية فهذه السرقات والرشاوى  
والمصادرات والنكبات قد أتت على هذه البقية، فلم تدع بينهم إلا علاقات  
الحذر والمساومة والتربص وفساد الطوية. ولا جرم تبيض الفتنة وتفرخ في بيثة  
كهذه بين جند يشغبون وعمال يدلسون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون  
ورعية تمزقها برائن الرعاة وملوك لا يأمنون على الملك ولا على الحياة

وقد حضر ابن الرومي في زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه وترك  
لنا في شعره مثلاً مما حدث في واحدة منها وهي فتنة الزنج التي اختلطت فيها  
الأسباب السياسية والدينية والاجتماعية، فقال يصف ما حل بأهل البصرة  
على أيدي الثائرين:

كم أغصوا من شارب شراب	كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى	فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا	ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى فى أهله أسلموه	حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا الشيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر	فضحوها جهرا بغير اكتام

كم فتاة مصونة قد سبواهم بارزا وجهها بغير لثام  
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام  
ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهونها على الناس إلا اتساع  
أرجاء البلاد الإسلامية وتفرق الفتن في تلك الأرجاء، وإلا فترات من القوة  
يتاح فيها للدولة في الحين بعد الحين خليفة حازم الرأي نافذ العزيمة فتسكن  
غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاة والعمال بعض الاستقامة، وتعلوا  
هيئته فيخشاه المغيرون على الدولة من داخلها وخارجها وتنفى الرعية إلى ظله  
زمنًا حتى يحم أجله فتعود الأمور إلى ما كانت عليه

### الحالة الاجتماعية

تنتهى الفوضى السياسية - إذا تطاول بها الزمن - إلى الخراب والعسر  
ونضوب الأرزاق بين جميع الطبقات عاليها وهابطها على السواء. ولكن  
الفوضى لا تمنع الترف إذا هي جاءت في البداية أو ترددت في الفترة بعد  
الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والإفساد. فلا يندر أن يجتمع الترف  
والفوضى في طبقات من الدول المتداعية التي ورثت السلطان القديم والثروة  
الواسعة وظاهر الحضارة وأفانين المعيشة الفاخرة. بل كثيرًا ما تكون الفوضى  
من أسباب الترف والمغريات به، لتعويدها النفوس أن تخلد إلى الدعة واغتنام  
اللذة وأن تحجم عن المساعي الجليلة والآمال الرفيعة. يأسا من كل غاية وشكا  
في مصير كل نعمة، وعلمًا بأن الحياة لا تجرى على وتيرة ولا تنتظم في سياق  
وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف أو قرن الخطر و  
"التسلية". بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت إلى العصر جرائر العصور الأولى  
فجنى ثمارها خللاً في السياسة وبذخا في المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة  
الحرب كلها قصف وكلها استسلام.

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو في

هذه الأمم وفي الأمم التي اتصلت بها من ترك وهند وصين، وتجمعت  
 الأموال المستحيرة في أيدي الأمراء وجباة الخراج وأصحاب التجارات الغادية  
 الرائجة في البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات، فكثرت  
 المترفون المنعمون وشاعت فنون الخلاعة والمجون، وأصبح لكل ضرب من  
 ضررب اللهو علم يعرفه علماؤه ويقرب أهله إلى الخلفاء وذوى الرئاسة حتى  
 الرقص وما إليه فضلاً عن الفناء والسماع. نقل المسعودى فى مروج الذهب  
 أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندمائه: "صف لى الرقص  
 وأنواعه والصفة المحمودة من الرقاص واذكر لى شمائله. فقال المسئول: يا  
 أمير المؤمنين! أهل الأقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان  
 وغيرهم. فجملة الإيقاع فى الرقص ثمانية أجناس: الخفيف والهزج والرمل  
 وخفيف الرمل وثقل الثانى وخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقله، والرقاص  
 يحتاج إلى أشياء فى طباعه وأشياء فى خلقتة وأشياء فى عمله. فأما ما يحتاج  
 إليه فى طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الإيقاع وأن يكون طالبه مرحاً  
 إلى التدبير فى رقصه والتصرف فيه، وأما ما يحتاج إليه فى خلقتة فطول  
 العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتمايل فى الأعطاف ودقة الخصر  
 وحسن أقسام الخلق... ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية  
 ولطافة الأقدام... ولين المفاصل وسرعة الانفتال فى الدورات ولين  
 الإعطاف، وإما ما يحتاج إليه فى عمله فكثرة التصرف فى ألوان الرقص  
 وإحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما،  
 واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها حتى يكون فى ذلك واحداً. ولوضع  
 القدم ورفعها وجهان أحدهما أن يوافق بذلك الإيقاع والآخر أن يتشبث به.  
 فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الإيقاع فهو من الحب  
 والحسن سواء، وأما ما يتشبث به فأكثر ما يكون وأحسن فليكن ما يوافق  
 الإيقاع مترافعاً وما يتشبث به متسافلاً".

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف. حتى انتهى القرن وأقبل ما بعده وللقوم فى آداب المجالس وآداب المائدة ما لم نسمع بمثله عن رومة وبيزنطة، فكان من رؤسائهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة كما قيل عن الوزير المهلبى أنه "كان من ظرفه فى فعله ونظافته فى مأكله أنه إذا أراد أكل شىء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف فى جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً - وكان يستعلمه كثيراً - فىأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمه ثم يدفعها إلى غلام آخر قام فى الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى يفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لثلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية"

واقتردى الأوساط والفقراء بالعلية والأغنياء فكثرت بيوت القيان والخمر وأدمنت المعاقرة صبوحاً وغبرقاً وشاع اقتناء الجوارى والغلمان واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها، فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الأسماع، ولاسيما حين أصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس فى هذه الأفانين وهم موضع النعمة التى تصبو إليها نفوس المحرومين، وفى إحدى قصائد ابن الرومى البائية وصف لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من نفس الشاعر، وذلك حيث يقول:

أترانى دون الأولى بلغوا إلا	مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا	بالمنى فى النفوس والأحاب
خير ما فيهم ولا خير فيهم	أنهم غير آثمى المغتاب
ويظلمون فى المناعم واللد	آت بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب الس	امع والطائفات بالأكواب

\*\*\*

يستسلسلن من مياه عذاب  
كالهواء الرقيق أو كالسراب  
شعلاً يلتهب أي التهاب

من جوار كأنهم جوار  
لابسات من الشفوف لبوسا  
ومن الجواهر المضيء سناه

\*\*\*

كر غضاب ذوى سيوف عضاب  
ذات طهر تراها كالملاب (١)  
عن وفاء الكلاب غدر الذئاب  
عن وثاب الأسود يوم الوثاب  
لا بأحسابهم بل الإكساب  
تترك الطالبين فى انتصاب  
هل يصيد الأطباء غير الكلاب؟  
س وإن كان حبلهم ذا اضطراب  
وفى قواقم وفى سنجاب  
م ومن سندس ومن زرياب (٢)  
وصحان فسيحة ورحاب  
تين تمس الرءوس بالأهداب  
تحت إظلال أيكها واصطخاب  
وفريدين أصبحا فى انتحاب  
من تداوى بها من الأوصاب

لهف نفسى على مناكير للذ  
تغسل الأرض بالدماء فتضحى  
من كلاب نأى بها كل نأى  
وأثبات على الأطباء ضعاف  
شروط حولوا عقائل بيضا  
من طباء الأئيس تلك اللواتى  
فإذا ما تعجب الناس قالوا  
أصبحوا ذهلين عن شجن النا  
فى أمور وفى خمود وسمود (٢)  
وتهاويل غير ذاك من الرق  
فى حبير منمنم وعسير  
فى ميادين يخترقن بسا  
ليس ينفك طيرها فى اصطحاب  
من قرنين أصبحا فى غناء  
بين أفنائها فواكه تشفى

(١) طيب يشبه الزعفران. (٢) أسماء أنواع من الغراء. (٣) ماء الذهب.

فى ظلال من الحـرور وأكنا  
 عندهم كل ما اشتهو ومن الآ  
 والطروقات والمراكب والولد  
 واليلنجوج<sup>(٢)</sup> فى المجامر  
 والغوالى وعنبر الهند والمس  
 ولديهم وذائل الفضض البي  
 لم أكن دون مالكى الأملا  
 ن من القر جملة الحجاب  
 لات والأشربات والأشواب<sup>(١)</sup>  
 أن مثل الشوادن الأسراب  
 والند ترى نشره كمثل الضبات  
 ك على إلهام واللحى كالحضاب  
 ض تباهى سبائك الأذهاب  
 ك لو أنصف الزمان المحابى

ففى هذه القصيدة وصف واف لمناعم العيش فى بيوت الطبقات الموسرة  
 ومعظمها من "الموظفين". وفيها - مع هذا الوصف الوافى - تفسير واضح  
 لتهالك الناس على العمالة والكتابة وسائر الوظائف التى يأتى رزقها من  
 المرتبات والجبايات والرشى والأسلاب، وفيها - مع هذا وذاك - تفسير لنقمة  
 الطبقات المحرومة وللثورات التى كانت تهب من هنا وثم لرد الظلامات  
 وإنصاف الفقراء. وأى شىء أدل على طلب الثورة والتلief على قلب  
 الأحوال والتأهب لتلبية الداعين إلى الشغب من قول شاعر وديع كابن  
 الرومى:

لهف نسى على مناكير الذ  
 تغسل الأرض بالدماء فتضحى  
 من كلاب نأى بها كل نأى  
 عن وفاء الكلاب غدر الذئاب  
 كـر غضاب ذوى سيوف غضاب  
 ذات طهر ترابها كالملاب

لا جرم يكون ذلك العصر عصر الحيرة والانتظار، ولا جرم تتأهب فيه  
 النفوس لدعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدى المنتظر والمصلح الأكبر  
 الذى يغسل الأرض بالدماء... ولا جرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك

(١) جمع شوب وهو ما يخلط بغيره. (٢) عود للتبخر به.

الخرمى وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الشوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء المنزوفين بالدعوة إلى المساواة والمرد على الحكام، وكان ذلك على أكثره فى بلاد الفرس حيث بقى الفلاحون كما كانوا فى عهد الأكاسرة يسامون سموم الأنعام ويستزفون كما كان يستزفهم الأمراء والملوك المؤلهون فى غابر الزمان، ثم كان ذلك على أكثره فى المرافئ الوثغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع وترفح السعر ويشد التنافس بين الطبقات .

على أن هذه الأحداث كانت تمر بالدولة وهى باقية سليمة منها بعض السلامة، لأنها - كما أسلفنا - كانت تتلقاها متفرقة فى الأماكن والأوقات، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والإفساد فى الأرض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة أخرى باسم المارق أو الفاجر أو الخبيث، فىنسى اسمه الأبل ولا يذكر إلا بهذا الاسم المتحل، وكانت هذه الثورات بتراء ليست لها وجهة مرسومة ولا خطة معلومة. فكانت تعوزها عناصر الدعوة المشروعة المستجابة التى تلتف بها الجماهير وتستبسل فيها، فلا توشك الثورة أن تستفحل حتى تفتت وتضمحل وتثوب الأمور إلى نصاب .

هذا والقصور سادرة فى غيها قلما تحس لهذه المشكلات الاجتماعية أثراً أو تتحرك لعلاج أسبابها الدفينة إلا فى العهد بعد العهد والصحة بعد الصحة، لا تراها فيما عدا ذلك إلا غارقة فى بذخها مفتنة فى زيتتها ولهوها: المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء يستبقون فى تجويد أساليب المعيشة وجلب ألوان المسرة، ومجالس الطرب تدخل على المجتمع العالى بعرف جديد من الآداب والأذواق، فلا يكون الأدب إلا أديها ولا الذوق إلا ذوقها ولا يحسب الوزير وزيراً ولا الرئيس رئيساً إن لم يكن مع ذلك نديماً يحسن املجالسة والمفاكهة ويصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة، فأصبحت المنادمة باب السلوك إلى الملوكوسلم الوصول إلى الخطوة

عندهم والدالة عليهم، والنض والإبرام فى شئون الدولة بالزلفيالى أهوائهم، واحتاج إلى علم هذه الصناعة كل ذى خطر فى الدولة لما كان عسى أن يحتاج إليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه فى ساعات صفوه وغضبه ونوبات إقباله وإعراضه، وكان أعلى ما يرجوه صاحب العلم والأدب والفضل ولاكياسة أن يصبح نديماً للملك أو مريباً لابن ملك. وهما عملان متقاربان متشابهان فى الآلة والكفاءة. ولم يكن من السهل أن يحذقهما الأديب لأنهما صناعة تجمع صناعات وفن يلم بثتى فنون، وإليك مثلاً مما كان يعرفه النديم الذى كان يرتقى به الحظ إلى مجالسة الأمراء والخلفاء. نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن أمالى جحظة النديم أن يزيد بن محمد المهلبى قال: "كنت أرى على بن يحيى المنجم فأرى قبح صورته وسفر خلقتة ودقة وجهه وصغر عينيه وأسمع بمحلّه من الواثق والمتوكل فأعجيب من ذلك وأقول: بأى سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظى عنده والقرد أملح من قباحتة؟ فلما جالست المتوكل رأيت على بن يحيى قد دخل على المتوكل فى غداة من الغدوات التى قد سهر فى ليلتها بالشرب، وهو مخمور يفور حرارة. يستثقل لكل أمر يخف دون ما يثقل، فوقف بين يديه وقال: يا مولاي! أما ترى إقبال هذا اليوم وحسنه إطباق الغيم على شمسه وخضرة هذا البستان ورونقه، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمزورز (يوم هرمزد إله الخير) وتعظمه غلمانك وأكرتك مثلى من الدهاقين، ووافق ذلك يا سيدى أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتخل بالفرح، فهش إليه وقال: ويلك يا على! ما أقدر أن أفتح عينى خماراً، فقال: إن دعا سيدى بالسواك فاستعلمه وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من رب الحصرم أو من متنة مطيبة مبرداً ذلك بالثلج انحل كل ما يجد. فأمر بإحضار كل ما أشار به فقال على: يا سيدى وإلى أن تفعل ذاك تحضر عجلايتان بين يديك مما يلائم الخمار ويفتق الشهوة ويعين على تخفيفه، فقال أحضروا عليا كل ما يريد. فأحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج قد صفت على أطباق الخلاف، وطبخ حماضية وحصرمية

ومطجئة<sup>(١)</sup> لها مريقة فلما فاحت روائح القدور هس لها المتوكل فقال له: يا على أذقتى. فجعل يذيقه من كل قدر بجرف يشرب فيها. فهس إلى الطعام وأمر بإحضاره، فالتفت على إلى صاحب الشراب فقال له: ينبغي أن يختار للأمير المؤمنين شراب ريحاني ويزاد مزاجه إلى أن يدخل في الشرب فيهنته الله إياه إن شاء الله. قال: فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا إلى مجالسنا وغنى المغنون فجعل على يقول: هذا الصوت لفلان والشعر لفلان، وجعل يغنى معهم وبعدهم غناء حسناً إلى أن قرب الزوال، فقال المتوكل: أين نحن من وقت الصلاة؟ فأخرج على اضطراباً من فضة في خفة، فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت، فلم يزل يعظم في عيني حتى صادر كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن. فقلت لأمر ما قدمت: فيك ألف خصلة - طيب ومضحك وأديب وجليس وحذق طباخ وتصرف مغن وفكر منجم وفطنة شاعر. . ما تركت شيئاً مما يحتاج إليه الملوك إلا ملكته"

وعلى بن يحيى هذا هو الذى ذكر ياقوت قبيل ذلك أنه "كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفسية لعلى بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة بقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبدولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى. فقدم أبو معشر من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شىء من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهالة أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى الحد، وكان ذلك آخرة عهده بالحج وبالدين والإسلام".

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها.

(١) يراجع كتاب الأطلعة الموجود منه نسخة فوتوغرافية بالمكتبة المصرية لمعرفة معظم هذه الأصناف وطريقة تحضيرها.

والحديث الذى نقله ياقوت مظهره للزيادة والتأليف فى بعض أجزائه، ولكنه يدل فى جملة على المناقب والخصال التى كانت تطلب من النديم فى ذلك الزمان، وترى من هذا الحديث كيف كانت سنة الفرس غالبية على مجالس الطرب وآدابها ومواعيدها وأدواتها، كما ترى ذلك من أوصاف المهرجانات والنوازير وأعياد الطبيعة ومنازة الرياضة والألعاب والصيد والطرود وسائر المراسم والأزياء.



إذا تلخصت الحالة السياسية فى سوء الظن فقد تلخص الحالة الإجتماعية فى اغتنام الفرصة، وأن هذا وذاك فى الحالتين لكا لشيء وظله أو كالصوت وصداه.

## الحالة الفكرية

قال ابن قتيبة فى مقدمة كتابه "أدب الكاتب" يصف حالة عصره من العلم والأدب:

"إنى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين. أما الناشئ منهم فراغب عن التعلم والشادى تارك للآزدياء والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس، ليدخل فى جملة المجذودين ويخرج عن جملة المحدودين. فالعلماء مغمرون وبكرة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع ببيع الخلق، وآضت المروءة فى زخارف النجد<sup>(١)</sup> وتشيد البنيان، ولذات النفوس فى إصطفاق الزاهر ومعاطاة الندمان، ونبتت الصنائع<sup>(٢)</sup> وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر

---

(١) الأثاث والفراش. (٢) جمع صنعة وهى البر.

وسقطت همم النفوس . . فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أدينا أن يقول من الشعر أبياتًا في مدح قينه أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئًا من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب، وهو لا يدري من نقله . قد رضى عوضًا من الله ومما عنده بأن يقال فلان لطيف وفلان دقيق النظر: يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهي به أليق! لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون . ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياء الله بنور الهدى وثلج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول وصحابه وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم . فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفرودة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة - راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإن طالها لم يحل منها بطائل! إنما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم، والكلام أربعه أمر وخبر واستخبار ورغبة: ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الأمر والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر! والآن حد الزمانين! مع هذيان كثير . . ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقهاء والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم، أو يسمع كلام رسول الله وصحابه لأيقن أن للعرب الحكمة فصل الخطاب . . . فلما إن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظًا من عنايتي

وجزءاً من تأليفى، فعلمت لمغفل التأديب كتب خفياً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيتها من التطويل والتثقل . . . وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ومن الكتابة إلا بالإسم ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شذا شيئاً من الأعراب فعن الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئاً من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك. ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسى والمدورات والعمودين، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى العمودين، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين. وكانت العجم تقول: من لم يكن عالماً ياجراء المياه وحفر المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر فى استهلاله وإقفاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه وحال أدوات الصناعات ودقائق الحساب كان ناقصاً فى حال كتابته. ولا بد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث، ليدخلها فى تضاعيف سطورها متمثلاً إذا كتب ويصل بها كلامه إذا حاور، ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة، فإن القليل معهما بإذن الله كاف والكثير مع غيرهما مقصر".

هكذا كان حكم ابن قتيبة على عصره.

وابن قتيبة أديب لغوى فقيه ولد فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ومات فى سنة ست وسبعين ومائتين، ونشأ وعاش فى بلاد العراق. فهو معاصر ابن الرومى فى زمنه وقرينه فى وطنه وشاهد عيان لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات أهله.

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ فى حكمه؟

لم يصب كل الصواب ولم يحظى كل الخطأ، وأيا كان حظه من الصواب أو الخطأ فقد مثل عصره أحسن تمثيل ينظر إليه صاحب الأدب واللغة والفقه، وغاب عنه ما وراء ذلك من نظر لا يحيط به الذين يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة.

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشتغل به أبناء عصره أو لا يشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة، وأنت تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها، لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطاً فى الكاتب والأديب لا تتم بغيرها كتابته وأدبه. حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه فى حاجة إلى إظهار مساهمته فى هذه المعرفة وهو يدعو إلى علم اللغة والكتابة، لئلا يستجهل ويعرض عنه.

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم على عصره، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحاً لإنصافه والإحاطة بجميع نواحيه، فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل فى رؤية البعيد، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريب إلا اليسير. كالناظر إلى القمر فى المنظار يرى جزءاً منه كبيراً مفصلاً ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظرة على ما حوله. ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبر وصغر وتناول المقياس ليقدر فأخطأ فيما قدر.

أخطأ ابن قتيبة فى شرح حالة العلم والتفكير بين أبناء عصره لأسباب متعددة: منها أن العلم لم يكن منهجاً واحداً فى ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج الفرق أهل السنة المتشددىن فى إنكار البدع، ومنهج الفرق الإسلامية التى تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافية بينها، ومنهج العلون الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار، ومنهج المتأديين المتطرفين

الذين يقتبسون كل قيس ويستطرفون كل طرفة. إلى غير ذلك من المناهج التي تتقارب وتتباعد على نحو ما نعهد في زماننا الذى نحن فيه.

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده فى العراق لأنه كان مجمع العواصم وملتقى العرب والعجم ومثابة العلماء والأدباء من جميع الطوائف والمذاهب، فرأى ابن قتيبة هو رأى المتشددين أنصار العلوم العربية لا يرون غيرها إلا فضولاً أو كالفصول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما إليها إلا لغواً قصاراه أن يلغظ اللاغظ بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والعرض مع "هذيان كثير".

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فرق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافاً من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذى لا يزدري، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتى نعاها على الإغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم، فلا يقولها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الأطراف.

ومن الأسباب التى باعدت بين الأديب اللغوى والإصابة التامة فى تمثيل عصره أنه كان أديباً ولغويّاً، وكان سبيل العلم بالأدب واللغة أن يتحرى الطالب ما تقدمه وأن يرتقى فى تحرى القدم إلى أبعد عصوره. فلا ينظر العصور التى خلفت بعد العرب الأسبقين إلا على أنها عصور نازلة منحدره تمنع فى الجهل والإسفاف بمقدار إمعانها فى البعد من العربية الجاهلية! فعنده أن السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للمتأخرين إلا أن ينعوا زمانهم ويأسوا على ما فاتهم! وكل زمان هو شر الأزمنة فى أوانه وخير الأزمنة - أو من خيرها - متى لحق بالماضى العريق! وما يرح ذم الإنسان عصره وانتقاصه إياه ديدن كل أديب فيما غير وديدن بعض الأدباء فى هذه الأيام. فابن قتيبة إنما جرى على هذه العادة التى لا تستغرب فى عهد البداوة العربية وفى عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع إلى القديم.

على أن الرجل لو تجرد من هذه العادة لبقى سبب آخر لعله كان يمنعه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع أخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم. فربما كان بعض الجهابذة في أيامه متباعدين متفرقين في أقطار ذلك الملك الواسع لا يسمع إلا المأمأ، وربما كان القريون منه في طريق العمل فلم يستووا بعد على غاية ولم يلبسوا بعد هالة الخلود والشهرة، وذلك فضلاً عن الذين جاءوا بعده بقليل. فهو لا يعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم.

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم في بلاد الإسلام قاطبة، لأنه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الإسلامية كلها كاملة مفروغاً من وضعها وترجمتها وتحضيرها غير مستثنى منها علوم السنة والعربية التي كان ابن قتيبة يتوفر عليها.

ففي القرن الثالث تمت المذاهب الأربعة في الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخارى ومسلم وأبي داود وابن ماجه والترمذى والنسائي، ونزعت السياسة التي تأيد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل. ثم انتهى القرن بظهور أبي الحسن الأشعري الذي مال من مذهب المعتزلة إلى مذهب أهل السنة فقبل فيه "كان المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم". ولم يخل علم من العلوم القديمة أو الحديثة من أعلام نبغوا في القرن الثالث أو حضروا أوائله، حتى العلوم العربية التي كان ابن قتيبة يتهم القوم بإهمالها والجهل بفضائلها: وهى علوم الرواية والنحو واللغة والأدب. فمن رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفراء، وابن السكيت، وقطرب، وابن الأعرابى ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازنى وثعلب والزجاج والمبرد وابن الأنبارى وابن دريك والأخفش والسجستاني والصولى والرياشى وأبو سعيد البكرى وقدامة بن جعفر وابن أبى الدنيا وابن العلا السكرى وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء أو يقلون عنهم فى الطبقة والشهرة.

أما العلوم الأخرى فقد تأسس في ذلك القرن التاريخ والجغرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغرافيين البلاذرى واليعقوبى وأبو حنيفة الدينورى وأبو زيد البلخى والطبرى وابن البطريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته وبزرک بن شهریار وآخرون، وكان من فلاسفته الكندرى والفارابى وابن سينا، ومن أطبائه الرازى وابن سهل وابن ماسويه، وراج علم النجوم حتى أوشك ألا يكون فى ذلك الزمن إلا منجم!

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الأعلام فى مناهج العلم المختلفة بل تجاوزه إلى طوائف الناس من خاصة عامة. فتحدثوا بالعلوم واشتغلوا بمحاوراتها ومنظاراتها وأقبلوا على افتناء كتبها، فكان العصر عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة فى مسائل البحث والمطالعة وشاع ذلك بين الناس أوسع شيوع، حتى كان الرجل منهم يجمع بين أشتات الثقافة فى زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن على بن يحيى المنجم أو كما ترى من قول ابن الرومى فى رجل يصفه بدعوى العلم فى معرض الهجو والتهمك:

قولا لطوط أبى على	بصرينا الشاعرا المنجم
المنذر المضحك المغنى	الكاتب الحاسب المعتم
الفيلسوف العظيم شأنًا	العائف القائف المعزم
الماهن الكاهن المعادى	فى نصر إيليس كل مسلم

وبلغت هذه النهضة العلمية حدًا أضجر الطرفاء كما أضجر المتشددىن، فكان الفتى المهذب يومئذ إما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو مشاركًا فى هذا وذاك أو ظريفًا ضجرًا من أكثر هؤلاء على حد وصف ابن المعتز:

قليل هموم القلب إلا للذة	ينعم نفسًا أذنت بالتنقل
فإن تطلبه تقتنصه بحانة	وإلا ببستان وكرم مظل

يعب ويسقى أو يسقى مدامة      كمثل سراج لاح في الليل مشعل  
ولست تراه سائلا عن خليفة      ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي  
ولا صالحاً كالعير في يوم لذة      يناظر في تفضيل عثمان أو على  
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب      ليعرف أخبار العلو من سفلى  
يقوم حرباء الظهيرة مائلاً      يقلب في اضطرابه عين أحول  
ولكنه فيما عناه وسره      وعن غير ما يعنيه فهو بعزل

والظاهر أن علم النجوم والرياضات على الجملة كان أروج العلوم الحديثة وأكثرها طلاباً، لطرافته، وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع الحضارة العربية الفارسية التي كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعود والنحوس، ولم يكن الإيمان بالسعد والنحس والزجر والقيافة غريباً عن العرب فقبلوا العلم الحديث غير متعسرين، وأفرطوا فيه ذلك الإفراط الذي لم يرض عنه ابن قتيبة ولم يرض عنه ابن المعتز، وهما في هذا المقام طرفان!

وربما كان من تمام البيان عن آراء المتعلمين يومئذ في فنون العلوم المختلفة أن نأتى هنا على رأى "النجوميين" فى أنصار القديم كما أتينا على رأى أنصار القديم فى النجوميين. فقد كان هؤلاء يهزأون بالمتشددين كما كان المتشددون يهزأون بهم، وكانت لهم فى السناد بالقوم دعابات ونكات أظرفها ما وضع فيما نظن على لسان أحمد ابن ثوابه الكاتب المعروف فى زمنه وجمعت فيه نكات العصر على كارهى الهندسة والرياضة وما إليها. قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين<sup>(١)</sup>: "... إن صديقاً لابن ثوابه الكاتب أبى العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم: إنك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسى وعلى الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت إقليدس وتدبرته! .."

(١) راجع معجم الأدباء فى ترجمة ابن ثوابه.

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوابة أنه كتب إلى صديق له سأله عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحوالة واستعاذة بما يأتي:

"... فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الذر، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله ثم أعلن عليها جاهراً بافكه وأقبل على وقال: أيها الرجل! إن هذه النقطة شيء لا جزء له، فقلت: أضللتنى ورب الكعبة وما الشيء الذى لا جزء له؟ فقال كالبيسط... فقلت أنا: وما الشيء البسيط؟ فقال كالله والنفس! فقلت له إنك من الملحددين. أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون؟.. فلما سمع مقالتي كره استعاذتى فاستخفه الغضب فأقبل على مستبسلاً وقال: إني أرى فصاحة لسانك سبياً لعجمة فهمك، وتذرعك بقولك آفة من آفات عقلك. فلولا من حضر والله المجلس وإصغائهم إليه مستصوبين أباطيله ومستحسنيين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه إياهم بخدعه وما تبينت من توازيرهم لأمرت بسل لسان اللكع الألكن وأمرت بإخراجه إلى حر نار الله وسعيه...".

ومضى ابن ثوابة يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصرانى وكيف استعظم هذا المعلم المسلم عليه أن يدرك النقطة، وقال له:

"وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة!.. وأخذ يخط وقلبي مروع يجب وجيباً وقال لى غير متعظم: أن هذا الخط طول بلا عرض، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له قاتلك الله! أتدرى ما تقول؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتضليلك! إنه لصراط مستقيم وأنه لأحد من الشيف الباتر والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون: أنطمعن أن ترحزحنى عن صراط ربي وحسبتنى غراً غيباً لا أعلم ما فى باطن ألفاظك ومكنون معانيك؟ والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الأضلة بالصراط المستقيم لتزل قدمى عنه وأن

تردينى فى جهنم! أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تدل عليه وترشد إليه . . . إنى برىء من الهندسة ومما تعلنون وتسرون" .

فهذا مثل بارع من السخرية التى كانوا يقابلون بها سخرية القوم من المنطق والنجوم . والكتاب على ما فيه من الصورة الهزلية يدل بين سطوره على حقائق كثيرة: منها استفاضة تلك العلوم وجلالة خطرهما بين المتأدبين حتى أن رجلا كابن ثوبة بلغ من المكائة والسن مبلغه يخف إلى تعلمها ويحسب أن مروءته لا تكمل بين ذوى العلم بغير درسها، ومنها أن أشياعها كانوا من الكثرة وأن أساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوبة أن يجد فى مجلسه رجلا واحداً يؤازره ويرضى له أن يهين المعلم الذى جبهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع فى داره . وليس يخفى أن الهزل كالغضب كلاهما مصور مبالغ موكل بالغلو فى التكبير والتصغير، فلا المتشددون كانوا كما مثلهم لنا أبو حيان فى دعابته وهزله ولا المشغولون بالحديث كانوا كما مثلهم لنا ابن قتيبة فى نكرانه وغضبه، بيد أننا إذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة فى الزمان والمكان

وسكان دار لا تزود بينهم على قرب بعض فى المحلة من بعض وليس يصعب على القارئ أن يتحليل هذه الحالة بجملتها لأنها أشبه شىء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال فى الثقافات وانفصال، أو لعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالى الذين يدخلون العصبية الشعبية فى هذا الخلاف ويجتهدون فى درس العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية وتضيف إليها ما ليس منها، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جميعاً فى العرب، وألا يستأثر العرب دونهم بكل مآثرة وفضيلة . وقد يشعرون بهذا القصد أو لا يشعرون، ولكنهم حريون أن تميل

بهم ضمائرهم هذا الميل إذا وقع التنافس بين العرب والشعوبية والتمست  
المفاخر من الجانبين.

## الشعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر، وقد يكثر الشعر ولا دراسة  
للآداب والعلوم. أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعاً لأشتات الثقافة  
بفروعها، كثير الآداب والعلوم كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار.

عاش في ذلك القرن - ولا سيما أوائله وأواسطه - نخبة من جلة  
الشعراء النابهين كأبي تمام والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن الجهم  
ودعبل الخزاعي وابن المعتز وابن الرومي، وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة  
الشعر المحسنين وغير المحسنين والمحترفين وغير المحترفين، وأوشك أن يكون  
كل متعلم متأدب شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراضه. فالخلفاء  
كانوا ينظمون للغزل والغناء، والأمراء والوزراء سواء منهم الفرس والعرب -  
كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير، والمنتهم إلى الفرس  
والأعاجم كانوا أسبق إلى المنافسة في هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة  
ويدخلوا مع العرب في ميدان الفصاحة: ومن الأمراء الفرس الذين مدحهم  
ابن الرومي من وضع كتاباً في الشكر ضمنه مختارات مما قبل في هذا المعنى  
وختمه بأصديح يطرى بها صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم،  
ونعنى به عبيد الله بن عبد الله ابن ظاهر عميد بيته العريق الذي تخرج منه  
كبار القواد والولاة.

لهذا كان ابن الرومي يقول وهو يشكو:

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء

لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بالعطف من جانب هؤلاء.

وندر في ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التي أجلمنا

وصفها فيما تقدم. فمن لم تظهر في شعره المعانى الفلسفية والآراء الطريفة التى سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى التى كشفها البحث فى أشعار المتقدمين وأدت إليها المعارضة بين أقوال الفحول واستطلاع أسرار البلاغة فيما أجادوه، ومن لم يظهر فى شعره هذا وذاك ظهرت فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى من أساليب الكتاب فى النثر المنمق وأساليب التحية فى المجالس وأساليب المعيشة فى القصور، وربما عرضت الكلمة الفارسية فى البيت العربى مما له المرادفات بالعشرات كقول شاعرنا:

يا أيها الملك الذى فى برده قمر وشير

يعنى الأسد ..

وربما نظموا فى أوزان الشعر الفارسية كالدوبيت والرباعية، أو نغنوا فى التمسيط والتوشيح والازدواج على نحو ما نراه من كلف بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض.

وامتاز هذا العصر على العصر الضمى تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعر تمييزاً له من العناية بنظم الشعر نفسه. فقد كان الشعراء المولدون: يأتون بالمحسنات البليغة عفواً أو محاكاة للأقدمين أو تصرفاً فى الاختراع، ولا يسمون هذه المحاسن بأسمائها أو يستخرجون منها علماً مرتباً على أقسام معزراً بشواهد، وسبق فى هذا المجال أمثال بشار ومسلم والعتابى وأبو نواس، وتلاههم أبو تمام وتلامذته فى أوائل القرن الثالث. ثم تمكن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من عقول الأدباء، وكتب الجاحظ وقدمه بن جعفر وابن المعتز فى هذه المعانى فإذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأسماء.

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة فى الشعر كالنظرة التى رواها صاحب زهر الآداب عن الحاتمى إذ يقول:

"مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد من الآخر وبإينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالنه، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة في تناسب صدورها وإعجازها وانتظام نسيبها بمدحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا يفصل جزء منها عن جزء. وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرمهم ولطف أقطارهم واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجووا دراسه، فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين فمذهبهم التعامل عن كذا إلى كذا وقصارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجاة والنجاء، وأنه امتطأها فادرع عليها جلاباب الليل، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يتعمده، إلا أن طبعه السليم وصراطه فى الشعر المستقيم نضى تياره وأوقد باليفاع ناره" إلى أن يقول بعد أبيات أوردها للنابعة الذيبانى:

"وهذا هو كلام متناسب تقتضى أوائله أوآخره ولا يتميز منه شىء عن شىء . . . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى وفتحوا أبواب البديع واجتنبوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزاً عجيباً".

فهذه النظرة تريك أثر البديع فى كتابتهم وفى تقديم القصيد، فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصيد إلى معنى يراد ويفهم، وأما النقد فمذهبهم فى حدة الأغراض واتصال الأجزاء لا يخالف مذهب المعاصرين إلا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب، وعذرهم أن المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذٍ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع.

وغنى عن القول بعد هذا أن " التنبيه " كان هو السمة الغالبة على الشعر كله فى ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد، فكان شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامد لترتيب أبياته عارف بمواضع التجويد فى لفظه ومعناه، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كل ما هذه الطريقة من المآخذ والفضائل ومن عناصر الضعف والقوة.

وتغيرت أغراض الشعر فهذا الذى يقول فيه ابن قتيبة أنه لا يعدو مدح قينة أو وصف كأس . . ! وإنما كان هذا الإمام الناقد الذى درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكراً مستصغراً يرى الشوهة ويغمض عن الحسنة. ولولا ذلك لرأى أن الشعر قد كان يعدو مدح القيان ووصف الكؤوس إلى أغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل فى كل معرض من معارض الحياة فى ذلك الزمان، ولم يقل فيها إلا ما كان وقتاً على أغراض البداوة وأيام الجاهلية الأولى. لأن هذه البداوة قلت فلم يكن لها نصيب من الشعر إلا القليل.

لكننا نخاله كان على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الأدب عامة عند الملوك والأمراء، فاشتغال هؤلاء الملوك والأمراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شىء وأجازتهم عليه الجوائز النسبية شىء آخر. إنما كانوا فى عصر ثقافة يود فيه كل امرئ كامل المروءة أن يعرف كل ما يعرف من الآداب والفنون والملاهى، فإذا تعلموا الشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشعوذة وطرائق التفكهة والإضحاك فى مجالس السمر، ولا يلزم من ذلك أن يكون لهذه الأشياء أو لأهلها المنقطعين لها خطر فى نفسه.

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر فى زمن كانت الوزارة فيه والكتابة - أو صناعة الأدب - فناً واحداً وشارة واحدة، وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالحظوة عند الخلفاء، ولكن أموراً كثيرة طرأت فى أواخر ذلك العصر كان من جرائها تطفيف أرزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة

النظراء وقلة النصاراء: ومنها توزع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذى كان مستأثراً بجلب عناية العرب فى صدر الدولة الإسلامية، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجيح صفة النديم على صفة الشاعر إذا تعذر الجمع بين الصفتين، ومنها قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم واللذات وشاعت الإباحة والمجون، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد أصابه وأصابهم ما يصيب كل كثير من الرخص والبوار، ومنها أن الدعوة السياسية خرجت كلها - أو أغلبها - من أيدي الشعراء إلى أيدي الدعاة الذين تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها أيام العباسيين والعلويين شأوا من البراعة والإتقان قلما يفاق فى عهد من العهود، ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية فى أواسط القرن الثالث بين عصرين سعيدين فات السابق ولم يأت بعده أوان اللاحق: ونعنى بهما عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطن المرجو المخوف، وقد ذهب. وعصر الأمراء الذين تقسموا المملكة واستقر كل منهم على جزء منها وتنافسوا بينهم فى اجتلاب الشعراء والتشبيه بالخلفاء، ولم يأت بعد!

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك، وربما كان هذا سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المحيدين فى الربع الأخير من القرن الثالث، والرابع الأول من القرن الذى تلاه.

## الدين والأخلاق

إذا عرفت حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء.

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام فى زمانه، وظاهر بعد ما تقدم أن الدين فى القرن الثالث لم يكن "دين الفطرة" الذى يؤمن به شعب لم يعرف الترف والفساد، ولم يشهد من ولاته ألا العدل

والاستقامة، ولم يتعود أن يناقش نفسه في عقيدته وعقيدة غيره. فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لا محيد عنها في أمثال تلك الأحوال.

كتب مسيرة بن حيان السمرى إلى أحمد بن سليمان ابن أبي شيخ يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته:

دخلتنا الشكوك يا ابن أبى شـ      شيخ بأى الأديان أنت تدين  
وإلى أيها تميل ابا جعفر      كم ذا الهوى وذا التلوين؟  
فأجابه عنه ابن الرومى:

يا ابن حسان لا تشكن فى د      يق الذى بلغ الرسول الأمين  
فهو توحيد ذى الجلال وتصد      فأعد عنى وانظر لنفسك دونى  
ينى، ولا تقتسمك فى الظنون      ليس يجزى سواى عما أدين

وسؤال ابن حسان مغزاه. فما كان له من محل لو أنهم كانوا يصدقون أن الرجل فى زمانهم يظن ما يظهر ويؤمن بالدين الذى يؤمن به الناس كافة. فكأنما كان المفروض فى طائفة من الناس أن يطوفوا سرائرهم على مذهب غير مذهب الإجماع وسر فى الاعتقاد غير الذى يبدوه علانية من "توحيد ذى الجلال وتصدق الذى بلغ الرسول". وليس بعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحل والأحزاب والعصبيات والدعوات والبحث والتفسير. فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة إلا كان لها أنصار ولأنصارها شأن ما فى بعض الجهات. ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الإسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة. وما كان أكثرها من نحل وأشده من لهج بالانتحال!! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضاً للنحل ومستبقياً للمشاقة بين المتحليين!! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسنة باختلاف أقوال المجتهدين فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها، وفيه ما بين هذا وذاك أشكال من التدين يجيء بها

دخول الفرس والروم والديلم في الإسلام عمداً أو على غير عمد. فبعضهم كان يسلم وهو في الباطن على دين آبائه، وبعضهم كان يخلص في إسلامه ولكنه ينتقل إلى دينه الجديد موروثات دينه القديم، وذلك فضلاً عن النصارى واليهود وعباد الأوثان. وكلهم على اختلاف في المذاهب والعصبيات كهذا الاختلاف، فغير مستغرب أن يسأل المرء عن دخيلة رأيه وباطن اعتقاده في هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان.

إلا أننا نخطئ أشد الخطأ إذا فهمنا من هذا أن الإباحة حلت محل الدين في تلك الفترة فتعفى أثره وبطل سلطانه. فإن مداراة الآراء التي تخالف الإجماع لا تدل على ذلك بل لا تدل إلا على تقيض ذلك، والمعهود في أمثال تلك الفترة أنها تقتل الغلو في التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب، كأن الإحساس بالخطر على العقيدة يحرك بواعث الغيرة عليها ويزرع النفوس إلى المنافحة عنها، فإذا رأيت الإباحة والترخص في جاني لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد في الجانب الآخر، ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لأنه جانب العادة الخالدة والعدد الأكثر.

وربما لاح للناس أنهم نبذوا الدين فما يشعرون إلا وهم يلبون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون في أنفسهم أنهم غير متدينين! ولقد كان مع الترخص في إباحة اللذات أناس غالون في النهي عنها يثورون على أصحابها في الحين بعد الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان. ومن هؤلاء فئة ببغداد خرجت - بعيد مولد ابن الرومي - تهجم على البيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان، وكان ينادى في بغداد قبيل وفاته - أي في سنة تسع وسبعين ومائتين - "لا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا منجم ولا زاجر" وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكالم والجدل والفلسفة.

بل كان ابن الرومي إذا ذكر الخمر في مديح أمير أسرع فاستدرك قائلاً أنها الشراب الحلال لا الشراب الحرام:

لا المدام الحرام لكن حلال      سؤر نار يحثها طابخان  
 شارك الخمر فى اسمها ليس إلا      إن أداموه مثلها فى الدنان  
 وحكاها فى اللوم والريح والظ      عم ولطف الديب فى الجثمان  
 فهو لا خمر فى الحقيقة لكن      هو خمر فى الظن والحسبان  
 ومثل هذا لا يقال إلا وللدین هیبة وللفرائض رعاية

وهناك الضمائر التي لا تقوى على الشك لأنها تستريح إلى التسليم  
 والاتكال، فهي أما أن تهرب من الشكوك والأقاويل إلى إيمان بسيط لا حاجة  
 فيه، أو تهرب منها إلى اللهو والمؤانسة وما يعينها فى الحاضر بين يديها لحظة  
 بعد لحظة، كما قال ابن المعتز:

ولكنه فيما عناه وسره      وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وأصحاب هذه الضمائر هم - حين يحسبون - أقرب إلى المؤمنين منهم  
 إلى المتشككين.

وما يقال فى الدين يقال فى الأخلاق. فلا ريب فى أن السياسة القائمة  
 على السلب والغيلة، والآداب القائمة على ما رأيت من الشك والتشعيب -  
 قلما تبقى للنفوس بقية صالحة من الأخلاق ومسكة عاصمة من الغواية.  
 ولكننا حريون أن نذكر أن نفوس الدهماء مطبوعة على العزاء، وأن أكبر  
 العزاء لها فى هذه الفترات أن تحسب الغواية والرذيلة من مساوئ الغنى والجاه  
 وتعتصم هى بالصبر والرجاء، وفى بنية الأمة أبداً مثل ما فى بنية الحى من  
 العوامل المكافحة للفساد التى لا تنى تصون الجسم زمناً ولا تبرح تلهم وطائفه  
 السداد وأن ضل العفل وأنحى على الجسم بما ينهكه ويرديه. فتظل هذه  
 العوامل ناشطة فى بنية الأمة ولو تراءى للنظر من مشاركة بعض الطبقات أنها  
 وقعت فى الاضمحلال. فلا يحسن بنا أن نبالغ فى تضخيم شأن الفوضى  
 التى ابتليت بها العقائد والأخلاق فى تلك الفترة الشاذة المتناقضة. فهى ولا

رب كبيرة وبيلة ولكنها ليست اكبر ولا أوبل سما قد يعترى أمما كثيرة وتواتيها  
بعده أسباب السلامة.

ذلك عصر ابن الرومي بخيره وشره وزيادته ونقصه. لقائل أن يقول في  
أطواره ما شاء أن يقول، وأن يختلف في أوصافه ما شاء أن يختلف، ولكن  
وصفا واحداً من تلك الأوصاف لا يجوز فيه أقل اختلاف: ذلك أنه كان في  
خيره وشره عصراً حياً يصنع التواريخ وليس بالعصر الميت الذي يطويه التاريخ  
في ثناياه.

وقد وضعنا له حدوداً من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب،  
ولكننا لم نرد بتلك الأرقام إلا أن تكون معالم في طريق الزمن يهتدى بها إلى  
البدايات والنهايات، وليست هي البداية والنهاية ولا هي محور الابتداء  
والانتهاء.

\*\*\*